المحاضرة الثالثة : أقسام التصوف وقواعده

تطورت الحضارة الإسلامية ، وتنوعت فيها المعارف والعلوم وتشعبت ، ونتيجة للتنوع الفسيفسائي البشري ، من فرس وروم وهنود وعرب.. فكان لهذا التلاقي والارتباط عن طريق الزواج والمصاهرة ،أثره على النهضة الفكرية والأدبية ، وكذا نشاط حركة الترجمة ، وتشجيع الخلفاء خاصة العباسيين ؛ كأبي جعفر المنصور وحفيده هارون الرّشيد والمأمون..وغيرهم

فكانوا يشجعون العلماء- فيجزلون لهم العطاء-؛ وخاصة ممن لديهم إلمام ومعرفة بالثقافة اليونانية والفارسية.. ، من أجل الترجمة في مختلف العلوم خاصة في الطب والرياضيات والهندسة والكيمياء والصيدلة والفلسفة والمنطق وعلم الحيوان والنبات ...

وقد أثر الإسلام بمبادئه ومعارفه التي أرساها ، من نحو وفقه وبلاغة وإعجاز قرآني وعلوم شرعية وقراءات وغيرها ، وللغة العربية بعلومها واشتقاقاتها ولهجاتها وتاريخها الرافد الأول والأصيل لهذه النهضة والتطور الحاصل على جميع الأصعدة .

وكان للتيارات الفكرية والمذاهب الفلسفية الإسلامية والفرق الكلامية من معتزلة وأشاعرة وفقهاء السنة والمتكلمين.. الأثر الكبير والإيجابي ، من أجل إرساء قواعد نهضة إسلامية متينة تقوم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وتحرير العقل من أباطيل الديانات الأخرى وأوهام الكهنوت وعقائد الوثنيين والمجوس ؛ لذلك حينما ترجم المسلمون عن الأمم الأخرى ترجموا العلوم ، ولم يترجموا العقائد أو الآداب(اللهم إلا تلك الترجمات التي صدرت عن بعض الزنادقة من أصحاب الديانات الأخرى) ، لأن العالم المسلم على اعتقاد جازم بصحة عقيدته ، وما دون الإسلام فهو زيف وباطل .

لم يكتف المسلمون بالنقل والأخذ عن الآخر، فكانت لهم بصمتهم في التأليف والكتابة والاختراع ، والتأسيس لعلوم جديدة ونظريات فريدة كان لها صداها الواسع في كل العالم.

فهذا أبو حنيفة النعمان برع في الفقه والقياس والإمام الشافعي صاحب الأحكام الصائبة والفتاوى الرائجة.. وابن سينا عرف ببراعته في الطب والخوارزمي ذاع صيته في علم الجبر والرياضيات وجابر بن حيان أرسى مبادئ علمي الفيزياء والكيمياء، وابن الهيثم صاحب علم البصريات، وهذا الفارابي وابن باجة وابن الطفيل عرفوا بتبحرهم في الفلسفة ، وابن خلدون مؤسس علم التاريخ وعلم الاجتماع...وغيرهم من علماء الإسلام.

وأسهم العرب والأعاجم المسلمين بهذه النهضة " وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلا متفلسفا كما أصبح عقلا علميا، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضا من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوما لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر. وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني ، مما نراه متجليا في العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام. " [1]

ونحن بهذه التوطئة نريد أن نظهر ما كان لهذا النشاط العلمي من أثر كبير على التصوف كاتجاه ، وكمسلك وجودي لفئة من الناس.

[1]) – شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص117

1/ أقسام التصوّف :

التصوف طريقة وأصلها كما يقول بن خلدون : " العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة " [1]

من هذا المنطلق فالتصوف ينقسم إلى قسمين هما:

1 – **تصوّف سنّي** : " هو الذي تقيّد بالقرآن الكريم ، والسّنة النبويّة ، والعناية بالتّعبّد والزّهد، وهو يعمل على الملاءمة بين الحقيقة والشريعة ، ويعتمد في ذلك آراء مشاهير العلماء الصوفيّة وأقوالهم " [2]

فالمتصوف كالفقيه في تقيده بمصادر التشريع الإسلامي من قرآن كريم وسنة مطهرة وإجماع وقياس ، ويزيد عليه الذوق والوجدان ، لأن التصوف ذوق وحس ، أما الفقه فيقوم على العقل والمنطق . يقول أحمد أمين : " والتصوف يعتمد على الذوق والمواجيد أكثر مما يعتمد على المنطق. والعقل في نظرهم أداة غير صالحة ، إن استطاع إدراك ظواهر الأشياء فهو لا يصلح مطلقا في استكناه الحقيقة ، لأنّ العقل لا يعرف إلا ما يقع عليه الحس ، أي لا يعرف الأشياء إلاّ في ظواهرها . أما الأشياء في حقائقها وكنه وجودها فمن وراء طاقته أبدا " [3]

والمتصوفة ينطلقون من المقولة السائرة : " رأس الحكمة مخافة الله " ومخافة الله لا تتحقق قولا وعملا إلاّ بمعرفة الله تعالى حقّ المعرفة ، والإيمان بوحدانيته ، ربّا خالقا معبودا

---

[1]) – أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج4 ، ط1 ، دار الأصالة ، الجزائر ، ص 118

[2]) – محمد مرتاض ، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية ، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون ، الجزائر ، ص 13

[3]) – أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج4 ، مرجع سابق ، ص118،119

مسيرا للكون وللوجود ، ولذلك بنى شيوخ هذه الحركة قواعدهم " على أصول صحيحة في التوحيد ، وصانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السّنة من توحيد ، ليس فيه تمثيل ، ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حقّ القدم ، وتحقّقوا بما هو نعت الموجود عن العدم... قال الجنيد : إنّ أول ما يحتاج إليه العبد من الحكمة ، معرفة المصنوع صانعه ، والمحدث كيف كان إحداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته " [1]

2 – **التصوّف الفلسفي** : ينطلق من الفلسفة ، ويبحث في أهم القضايا ذات الصلة بالفلسفة والتصوف المتعلقة بالوجود والماهية والصفات والفرق بين الذوق والنظر.. ، كما أثاروا بعض القضايا التي قد لا يوافق عليها العقل ، وتتناقض تناقضا تاما مع الشريعة أو المنطق.." ومما يتميز به الأدب الصوفي الفلسفي كثرة الرموز وتنوعها ، وهذه السمة هي التي تجعل منه أدبا عسير الإدراك ، مستعصي الفهم . " [2]

2/ قواعد التصوّف :

يستقي التصوف مادته الروحية والخلقية من تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة ، ولذلك فقواعد التصوف خمسة وهي :

1 – صفاء النفس ومحاسبتها: فمن أراد سلوك العارفين عليه أن يتهيأ للقاء الله ، فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله تعالى ، ويصفي نفسه من الوساوس والأضغان. قال تعالى : " **ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورَها وتقواها ، قد أفلحَ من زكّاها ، وقد خابَ من دسَّاها** ."[3]

---

[1]) – الإمام القشيري النيسابوري ، الرسالة القشيرية ، ط3 ، دار صادر ، بيروت ، 2011 ، ص 13 ، 14

[2]) – محمد مرتاض ، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي ، مرجع سابق ، ص14

[3]) – سورة الشمس ، الآية : 7–8–9–10 .

2 – قصد وجه الله : أن يقصد المتصوف وجه الله تعالى قولا وعملا ، ويخلص في عمله لله تعالى ، لا يريد رياء ولا جزاء من أحد. قال تعالى : " **وما لِأحدٍ عندهُ من نعمةٍ تُجزى إلاَّ ابتغاءَ وجهِ ربّهِ الأعلى ولَسوف يرضى** " [1]

3 – التّمسك بالفقر والافتقار : ويقصد به الزهد في الدنيا ،وتوطين النفس على التقشف ، والرضى بالقليل " والافتقار هو تجرد المرء من زينة الحياة لينقطع لتقوى الله بخشية وخشوع مظهرا الافتقار إلى الله وأنه لا حول له ولا طول إلا به . طالبا منه التكرم عليه بالامدادات و التجليات. "[2]

3 – توطين القلب على الرحمة والمحبّة : فالصوفي محب لربه وللمسلمين ، يرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم " فإن رسخ في هذه القاعدة واستقام في التدرب عليها ، أفاض الله عليه أنوار الرحمة وأذاقه حلاوة الرضا وألبسه ثوب القبول " [3]

فقد كتب الرحمان على نفسه الرحمة ، ونبيه هو الرحمة المهداة للعالمين . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " **لما خلق الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش إنّ رحمتي تغلب غضبي** " [4]

4 – التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي لتمامها : فقد ورد قوله صلى الله عليه وسلم : " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** " فالصوفي عليه أن يتمثل أخلاق النبي ، في رفقه بالضعفاء

---

[1]) – سورة الليل ، الآية : 19 – 20– 21 .

[2]) – محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ص 16

[3]) – نفس المرجع ، ص 16

[4]) – الإمام الزبيدي ، مختصر صحيح البخاري ، مراجعة وتحقيق : أحمد راتب عرموش ، إبراهيم بركة ،ج1 ، الشركة الجزائرية ،ص 510

والمساكين وفي رحمته وبره باليتيم ، وفي تواضعه ولين جانبه للمسلمين . قال تعالى : " **محمدٌ رسولُ الله والذّين مَعهُ أشدَّاءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهُم تَراهُم رُكّعًا سُجّدًا** " [1]

[1]) – سورة الفتح ، الآية 29